شـــــهـــــادة

سِـفـر الـهـويـة

وَجَد نفسَه، منذ وعى، يبحث عن هوية، وهو يقف مع جده بباب المسجد تحت صخّات الأمطار ينتظر أذان المغرب أو العشاء، ويبحث عن هويّته، ووالدُه يدفع به ـ وهو يمسك بيده في حرص ـ إلى جامع القرويين ليقرأ مع القارئين في ابتهالٍ وخشوع: «اللهم يا لطيف، نسألك اللطف فيما جرَتْ به المقادر، ولا تفرِّقْ بيننا وبين إخواننا البرابر...». ويَفْتَح عينيْه المرعوبتيْن في وجه والده وكأنه يسأله:

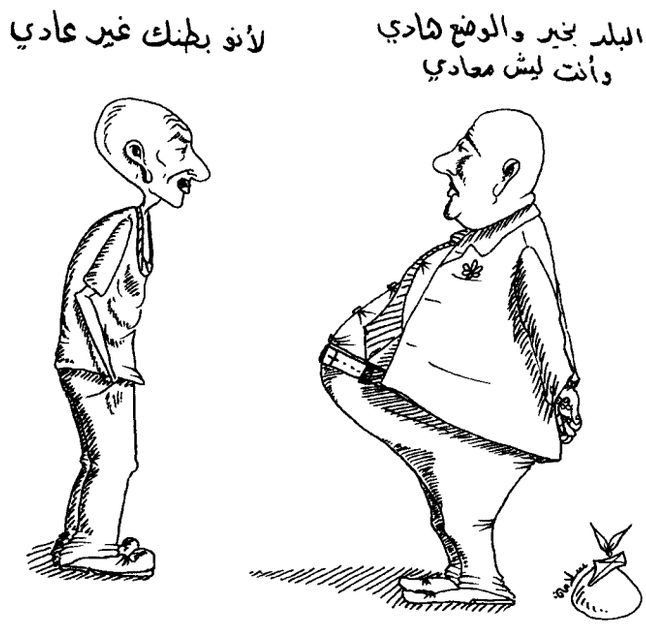

ـ ماذا جرى مما يتطلب هذا النداءَ المستجير؟

ويتلقّى الجوابَ صارماً:

ـ لا تتخلّف في أيّ يوم عن الحضور مع الجموع لتسأل معهم اللطفَ فيما جرَتْ به الأقدارُ.

يواصل الصلاةَ ودعاءَ اللطيف، ويرتفع صوتُه الصبيُّ كلما ارتجف قلبُه من دعاء المستغيثين، علّ صوتَه ينْفذ إلى السماء قبل أصوات الشباب والرجال والشيوخ. حتى إذا وجدهم يَعْتقلون مترزعّمي الحركة داخل المسجد يخرجون بهم وسطَ الجموع الغاضبة في استسلامٍ، فغر فاه، وكأنه يبحث عن شيءٍ ضائعٍ بين الذين يَعتقلون والذين يُعتقلون.

ـ لماذا كلُّ هذا التضرُّع اللاهب، ومحنة الذين يُعتقلون ويُجلدون؟

ويبقى السؤالُ حائراً في فكره الصغير يبحث عن جواب. لم يشكَّ في أنهم يبحثون عن شيءٍ ضاع منهم، ضاع منه، وقلبُه يرتجف معهم بالدعاء، علّ اللهَ يستجيب، فيعود الذي ضاع. لم يجد للذي ضاع اسماً في عقله، بل وجد له اسماً في إحساسه المبهم: إنه الهوية.

من هنا بدأ يبحث عن الهوية.

يتعلّم في المدرسة. يقرأ اللغة والتاريخ والجغرافية. إنّها جميعاً تؤكّد ذلك الذي ضاع، ولكنّه في الكتب، لا في الواقع المعيش. يقرأ عن الإسلام، حضارته وأخلاقه وقيمه، يجده في المسجد صلاةً، وفي رمضان صياماً، وفي الأعياد احتفالاً، وفي عيد المولد مجموعةَ أساطير. ولكنّ ما قرأه في الكتب لا يجده في المسجد ولا في رمضان ولا في قصة المولد، ويبحث عن الشيء الخفيّ الذي ضاع من كل ذلك فلا يجده. إنه هوية الإسلام التي ضاعت مع الذي ضاع مِنْ حقيقة التاريخِ والجغرافيةِ ولغةِ الوطن.

يلتصق بأساتذةٍ بحثوا قبله فلم يجدوا، ولكنهم تشبّثوا بالذي يبحثون عنه منذ جُلد بعضُهم وسُجن آخرون بعد أن خرجوا من المسجد، ولم يرتكبوا إثماً إلا أنهم جهروا بالدعاء إلى اللطيف. كان السجنُ والجلدُ والضربُ والعذابُ والنفيُ طريقاً للبحث عن الشيء الذي ضاع. وتعلّم أن يقتفي أثرهم، فيبحث معهم عن الهوية التي ضاعت في غمرة تراكمات التخلف والهيمنة الأجنبية.

مسيرة التعلّم والدراسة عانقتْ مسيرةَ ديوجين ليُسرج مصباحَه باحثاً عن شيء ضاع أو كاد بين مخلّفاتٍ وأوشابَ وبقايا تُحدِّث عن الماضي، ولكنها تؤثِّر في المستقبل. ديوجين لم يكن يائساً من أن يصل (وإنْ أسرج مصباحه في ضوء النهار) لأنّه يبحث عن حقيقة... والحقيقة لا تضيع، ولو أظلمتِ السماءُ من حولها. أولئك الذين استُشْهدوا في الأطلس والريف، وأولئك الذين جُلدوا وعُذِّبوا وسُجنوا وغُرِّبوا، لم يكونوا مازوشيين، بل كانوا يَنْشدون الحقيقة، ووجدوا نُشدانَها في الطريق الذي سلكه مِنْ قبلهم المجاهدون في الجبال والسهول والوديان. فأوحوا إليه أن يحاول البحث عن شيءٍ يحسبه ضاع، وما هو بضائع ولو اختفى وراء جدار الزمن الرديء.

سلك الطريقَ نفسه، وما ضلّ. لم يكن يبحث أملاً في أن يجد، بمقدار ما كان يبحث عاملاً على أن يحقِّق. تعلّم ألا يكون اجترارياً، بل أن يكون فاعلاً. ومن هنا جاء انتماؤه السياسيّ ونشاطُه الاستقلاليّ. وربّما أمكنه أن يلخِّص حياته في أنه باحثٌ عن هوية، سواء في ما يقوم به من عمل، أو في ما يقرأه ويكتبه ويفكِّر به. لعلها مسيرة متكاملة: ذلك أنّ البحث الجادّ عن قيمة كبرى لا يستقيم بغيرِ تكاملِ الممارسة مع الفكر والإبداع. فالفكر الباحث الذي لا يقدِّم المَثَلَ من الفعل الباحث قد يُعتبر عملاً تجريدياً يَصْلح في زمنِ الرفاه الفكريّ والتشبّع الثقافيّ والسياسيّ والاقتصاديّ والاجتماعيّ، ولكنه لا يَصْلح في زمن الضياع والتيه. ولذلك ارتأى ألاّ يكون باحثاً تجريدياً من موقع الفعل دون سندٍ من الفكر والقلم والإبداع، ولا باحثاً قلمياً تجريدياً دون سندٍ من واقع انتمائه ونشاطه وعمله اليوميّ.

هذا الالتقاء هو الذي يعرِّف شخصيتَه كباحثٍ عن هوية.

ومن هنا يُمْكن أن نزعم أننا نجد هذا اللقاء في العمل الفكريّ كما نجده في العمل الإبداعيّ. فهو، كباحثٍ في التاريخ أو السياسة أو تطوُّرِ نظام الحكم، أو كمحلِّلٍ للشخصيات العلمية والسياسية والنضالية، كان يبحث من خلال كل ذلك عن شيءٍ خَلْفَ كلّ هذه الواجهات: إنّه جذور هويته في التاريخ والأدب والفكر السياسيّ. ولذلك نجد معظم أبحاثه الفكرية، كمعظم إبداعاته القصصية والروائيّة، مرتبطةً بالذات في بُعدها الوطنيّ. وكان معظمُ ما كَتَبَ متعلِّقاً بالمغرب، لأنّ هاجسه الأكبر هو البحثُ عن هوية هذا الوطن التي ضاعت أو كادت.

ولكنّ السؤال المطروح الآن هو: هل المبدع يَنْقل ذاتَه إلى الآخرين؟ وأقصد: هل يستمدّ المبدعُ قصتَه أو روايتَه من ذاته يصبّها في الآخر؟ هل يحوِّل البطلَ في الرواية ـ مثلاً ـ إلى باحثٍ عن شيء هو نفسُه كان يبحث عنه؟ هل يقول البطلُ أو الأحداثُ ما كان يرغب في أن يقوله هو؟ هل يُحيي حياةً أخرى يصطنعها بتصوّره وتصويره، بتخيله وتخييله، ليحياها في أحداث الرواية وفي أشخاصها وأبطالها والأفكارِ التي تحرِّكهم ويتحاورون حولها؟

قد يلجأ النقّادُ إلى هذه الأسئلة وهم يَدْرسون نموذجاً قصصياً أو روائياً، فيستنطقون النموذجَ عن الكاتب وينتهون إلى أنه كَتَبَ سيرَته الذاتية أو لم يكتبها. ولكنّ ما أريد أن أسأل عنه هو استنطاق كلّ إنتاج الكاتب لا لنبحث عن سيرته الذاتية أو تفاصيل حياته وجزئياتها في القصص والروايات، بل لنبحث فقط عن نموذجه الفكريّ، أو عن الهاجس الذي طَبَعَ حياته: هل أَنْطق به الآخرين من أبطال قصصه وروياته؟ وهل تجلّى هذا الهاجسُ في الأحداث، أو فيما وراء الحدث، أو في مضمون المضامين التي يَحْفل بها مجموعُ القصص والروايات؟

أَحسب أنّ الكاتب لا يستطيع أن يتجرَّدَ من ذاته، أو من الهاجس الذي يسكن كيانه وهو يكتب. وإلاّ كان يعاني انفصاماً بين ما يعيش، وما يجعل قرّاءه يعيشون فيه من خلال ما يقرأون من إبداعه. وأزعم أنّ عطاءً كهذا تَنْقصه المصداقيةُ الفنيةُ، وهي أهمُّ من مصداقية الخبر والرواية.

*

من هنا يمكن أن نقول إنّ صاحبنا نَقَلَ هاجسَه في البحث عن الهوية إلى كل النماذج الإبداعية التي كَتَبَها: ابتداءً من **بائع الحظ** (وهي أُولى قصصه القصيرة التي رأت النور على الصفحات المطبوعة)، إلى **شروخ في المرايا**، وما تلاها من قصصٍ قصيرةٍ بعضُها رأى النور، وبعضُها ما يزال بين الأوراق المنسيّة في الأدراج.

بائع الحظ هذا فتى معوّق يسعى إلى خبزه ببيْع أوراق اليانصيب، وقد تزيد ورقةٌ يبيعها غنياً غنًى، غير أنها لا تدرّ عليه أكثرَ من فتاتٍ ينضاف إلى فتاتٍ ليكون لقمةَ عشائه. الفكرة بسيطة والحدّوتة قصيرة، ولكنّ بطلها يبحث عن هويته كإنسانٍ يأكل الطعام ويمشي في الأسواق، وكمواطنٍ يبحث عن هويته من خلال ما يبيع من حظوظٍ ليس له حظٌّ منها.

ننتقل إلى نموذج آخر في قصة «ابن المجهول»، وهو نموذج من نماذج أبطال السجون والمعتقلات الذين حَفَلَتِ القصصُ كرواية **سبعة أبواب** بهم. لا تهمنا الأحداثُ فيها، ولا التصويرُ الفنّي، بقدر ما يهمنا أنّ البطل فَقَدَ هويته، وهو يَلِجُ أول الأبواب السبعة. على الباب يسلِّم الحارسَ كلَّ ما هو ثمينٌ وما ليس بثمين: المال، الساعة، الحزام، سيور الحذاء، الأوراق، الكتب... ومع هذه جميعاً يسلِّم هويته، بعد أن يسجِّل اسمَه واسمَ أبيه وجدّه وأمه وعملِه وسوابقه، ليصبح رقماً تافهاً يُكتب على لوح هو قَدَرُه يعلَّق على رقبته: مجهول بن مجهول، لا يُعرف له اسمٌ ولا أبٌ في السجن. إلى أن يستديرَ بوّابته، فيستعيد، إنْ كانت له ذاكرةٌ قوية، اسمَه واسمَ أبيه، ويصبح الرقمُ من حظِّ سجينٍ آخَرَ استقبلتْه البوّابةُ في صباحه ذاك. الأبوّة والبُنُوّة هنا لم تكونا إلا رمزاً، والسجنُ لم يكن إلاّ رمزاً للسجن الكبير الذي كان يعيش فيه المواطنُ الباحثُ عن هويّة وهو يؤدّي فروض الحياة كما يؤدّي ابنُ المجهول في السجن فروضَ السجن.

ألا نجد ملامح هذه الشخصية نفسها، ومن هذه الزاوية بالذات، في «حادة» وهي تكافح من أجل الحفاظ على الأرض، فتقف ضد زوجها، وضدّ كلّ الذين يحاولون أن يجرِّدوا العائلة من أرضها، وتدفع حياتها ثمناً لهذا الهاجس؟ فالحق أنّ الأرض هي هويتها، بل هويةُ كل فلاّح؛ ويومَ يتخلى عنها يشعر أنه تخلّى عن هويته الإنسانية وعن سيادته وعن حريته.

ونتابع الباحثين عن الهوية وراء سبعة أبواب: عشرات من الوطنيين والمجرمين، الذين يريدون أن يصحِّحوا القانون، والذين يخرجون عن القانون، والذين يُقتلون لتحيا بلادُهم، والذين يَقتلون لتأكيد الجريمة في مجتمعهم. كلهم يبحث عن هويته التي ضاعت: من واحدهم يوم أسلمته الوطنيةُ إلى العمل السياسيّ أو الفدائيّ؛ وضاعت من الآخر حين حرمه المجتمعُ التعليمَ والتربيةَ ولقمةَ الخبز والعملَ الشريف، أو حرمه الحبُّ الشريفَ بالزواج، فانتقم من نفسه ومن المجتمع بالجريمة التي لم تكن عن عمدٍ وسبقِ إصرار.

ويخرج البطلُ من السجن ككلِّ داخلٍ، فيبحث مرةً أخرى عن هويته فلا يجدها. وها هو يقف أمام المحقق الذي سيبشِّره بالإفراج عنه، ولكنّه يلطمه بالتنكر لهويّته.

ـ «سيُفرج عنك. ولكنْ هل معك مَنْ يضمنك؟

ـ مَنْ يضمنني؟ وهل ضاعت شخصيّتي فأصبحتُ لكي أُثبتها في حاجةٍ إلى ضامن؟»

ويبحث حوله فلا يجد غيرَ شخصه. شخصُه هذا مجرَّدٌ من هوية. ومَنْ لا هوية له لا يَضْمن مَنْ يُطالبِ بإثبات هويته. وهكذا جُرِّد من هويته سجيناً، وجُرِّد منها طليقاً. أفلا يبحث عنها، إذن، بين قلمه وقرطاسه؟

وتكون رواية **سبعة أبواب**: «يدخل منها الذين ضاعت هويتُهم، ويخرجون منها وقد ازدادت ضياعاً».

ألا نلتقي الشخصيةَ نفسَها تحت أسماء شتى: عبد الرحمن، محمود، علي، عبد العزيز؟ كلهم كانوا يبحثون عن هويتهم في المدرسة، في الشارع، في المنزل، في العائلة، في التمرد على الواقع. فيكون أحدُهم مناضلاً سياسياً، وثانيهم مناضلاً نقابياً، وثالثُهم متمرِّداً على الوضع الاجتماعيّ العائليّ. وتكتمل صورةُ الباحثين عن الهوية في هذا التناقض بين المتمردين والمستسلمين، بل داخل مفهوم التمرد نفسه: بين المتمرِّد على الوضع السياسيّ والوطنيّ، والمتمرِّدِ على وضعه العائليّ. وإذا ببعضهم يجد هويته في ما يرتقب من تحررٍ سياسيٍّ استقلاليٍّ أو نقابيٍّ، وبعضهم في ما يرتقب من الإمساك بالسلطة، ولو من خلال قبضة المستعمر.

لم تَبْهر الكاتبَ أنوارُ الاستقلال، ولم تُعْشِ فكرَه، بل فَتَحَ منافذَ فكره على أبعادها. الصباح كان «صباحاً» دون «أل» [التعريف]، ولم يكد يبدو حتى «زَحَفَ اللَيلُ». وكان قاسم وكانت راقية كلٌّ منهما يبحث، ضمن عشرات من السائرين والسائرات في الفلك، عن هويته. فثمّة مَنْ أَعْشَتْ عينيْه أضواءُ الصباح، فما رأى مما تكشّف عنه الضياءُ إلا السلطةَ تنتقل من أندريه وفرانسوا إلى قاسم والراجي واليوس، بكل مباذلها، لتضيف مباذلَ أخرى: كغياب الحسّ الوطنيّ، وتخديرِ قيم المسؤولية والشرف والنزاهة. وانتهى الأمر بأن بدأت العملةُ الرديئةُ تَطْرد العملةَ الجيدة من السوق ـ كما عبَّر أحدُ الاقتصاديين في سخرية ـ حتى «زَحَفَ الليلُ على صباحٍ» لم تشعَّ بعدُ أنوارُه.

شعلة باهتة، ولكنْ حميمة، انبعثتْ في الظلام الزاحف مِنْ أردان «راقية»، باحثةً عن الهوية أيضاً، دون أن تضلّ الطريق رغم أَجنحتها المكسَّرة. لم تجد أمامَها غيرَ سامي طفلاً صغيراً ما يزال يُطلّ على الحياة، فصَدَمه الواقعُ، ولكنها تَهْمس في أذنه: تخلَّصْ من الصدمة، قُلْ كلمتك ثابتةً واضحةً صريحةً، لا تستدرْ خلفاً... اغسلْ وجهك، نظِّفْه جيداً كما أفعل، سِرْ معي، لا خلفي، لا أمامي...

نماذج أخرى تبحث عن هويتها، رَكِبَتْ زورقاً تائهاً في محيطٍ عاتٍ: المدينة تصدم القرية؛ القرية تصدم المدينة؛ العلم يصدم التخلف؛ صراع السلطة والقانون. ثمة مجتمعات في مجتمع واحدٍ يضيق بالتناقضات والإحباطات، لا أحد من بنيه يعرف

موقعه من عالَم تَغْمره الضبابيةُ، ومع ذلك كلٌّ منهم يَبْحث عن شيءٍ ما: مصلحة، عدل، قانون، حرية، سلطة، قوت، مال، امرأة، عمل... زخم منَ الباحثين عن البضائع، لم يكن فوزي وجمعة وأحمد إلا نماذجَ، قاطرةً تجرّ القافلةَ، في البحث عن الهوية.

أما بطلنا الذي لا اسم له، وقد نجده في كل مكان من شوارع المدينة وأحيائها المتحركة، فقد بدأ حياته من باب كلية الحقوق، لينتهي إلى القنطرة التي تفصل بين عالميْن لم يَهْضمه أوّلُهما ولم يستقبله الآخرُ، فلم يستطع أن يتعرف على ملامح وجهه وقد شُرختْ كلُّ المرايا؛ حتى صفحةُ ماء النهر الرقراق لم تَعكس هويته. بَطَلُنا هذا، وقد غذّ السيرَ باحثاً عن الضائع، لم يُسعفْه مصباحُ ديوجين، ولا الشمسُ ساطعةً في وضح النهار مثلَ قمة الضياع في الفترة التي توصف بأنها الزمن الرديء.

*

سؤالان يُلِحّان وأنا أقوم بهذه الجولة الاستعراضية:

أولهما: ما مفهوم الهوية الضائعة التي تربط ما بين بائعِ الحظ وصاحبِ المرايا، رغم البعد الزمنيّ الذي يناهز أربعين سنة؟.

الهوية الضائعة هي الوطن الضائع، أي الوطن الذي ضاعت منه الأرضُ والكرامةُ والمسؤوليةُ والعدلُ، وانسدّتْ بضياعه آفاقُ المستقبل في المعرفة والعمل وكرامة الإنسان. وهي الحرية التي يطمح المواطنُ إلى ممارستها، فيجدها مقيَّدةً أو مغتَصَبةً أو مفترًى عليها. وهي كل القيم المتعارَفِ عليها إنسانياً يتمتع بها المواطنون لتكون لهم المصداقيةُ الإنسانيةُ كالآخرين، وليكونوا أعضاء فاعلين في المجتمع البشريّ المدنيّ، وليقفوا في كل محفلٍ دوليٍّ فلا يشار إليهم بإصبع الاحتقار أو اللمز أو الدونية، ولتكون كلمةُ وطنهم معْتَبَرَةً حين يُعْلِن عن نفسه في مجتمعٍ علميٍّ أو سياسيٍّ أو اقتصاديٍّ أو دوليٍّ، وليلعب هذا الوطنُ دورَه في الحياة، ويكونَ له المقامُ المحمودُ في العالم الجديد، فلا يجلس على الكرسيّ الجانبيّ ليقرّر الآخرون مصيرَه.

هذه هي الهوية التي ضاعت مع التخلف، وازدادت ضياعاً مع الاستعمار. الباحثون عنها أبطالٌ في التاريخ. منهم مَنْ صَعدَ الجبلَ وحَمَلَ البندقية، ومنهم مَنْ نزل السفحَ ومارس التمردَ المسالِمَ في اصطدام والمصطَدِمَ في مسالمةٍ. منهم مَنْ كافح دون أرضه أو كرامته أو إنسانيته أو رؤيته في الحياة، ومنهم مَنْ سَبَرَ غور المجتمع بهدم سدود التخلف الفكريّ والسياسيّ والاجتماعيّ وبِرَتقِ مظاهر التمزق النفسيّ. منهم كثيرون حاربوا في كل ميدان يبحثون عن الهوية الضائعة. وعاشت القصة والرواية، كفنٍّ من فنون القول الملتزمة، مع هؤلاء وأولئك، لا لتصوِّرَهم كما أفرزهم المجتمعُ، بل لتتخذ منهم نماذجَ للقيام بدور الفنّ في الحياة المتحركة. وما البحثُ عن الهوية إلا حياةٌ متحركة.

وأما السؤال **الثاني** فيتعلق بالقصة والرواية. فهذان الجنسان الأدبيان، في بحثهما عن الذات والهوية، اجتازا مراحل متدرجة. فإذا لُخِّصتْ هذه المراحلُ في المرحلتيْن الكبيريتيْن: مرحلة الاستعمار ومرحلة الاستقلال، فإنّ الحياة في كلٍّ منهما تطورتْ تطوراً ملحوظاً.

وتابع البحثُ عن الذات هذا التطورَ التدريجيَّ حياتياً وعملياً ونفسياً وفكرياً. لم يكن التطورُ زمنياً وتاريخياً فحسب، بل كان كذلك تطوراً في الوعي وفي المستوى الثقافيّ والمسؤولية. ولعلّ هذا التطور أفرز نماذج من البحث عن الذات، ومن المؤكد أنه أفرز أيضاً مفاهيمَ مختلفةً للهوية ولأساليب البحث عنها. وسؤالي هو: هل عكستِ القصصُ والرواياتُ التي بين أيديكم هذا التطورَ في المظلّ والظلّ، أعني في الحياة التي يعيشها الإنسانُ، وفي انعكاس هذه الحياة على النصوص؟ ولكنّه سؤال أُعفي نفسي من الجواب عنه.

*

وبعدُ، فإنّ البحث عن الهوية الضائعة، وهو البحثُ الذي وظّف له الكاتبُ معظمَ نصوصه، لم تَطْبعْه الفرديةُ، ولا غَلَبَ عليه «الأنا»، بل كان بحثاً في أعماق التحوّل المجتمعيّ: من لقمة الخبز عند بائع الحظ، إلى البحث عن هوية ضائعة اسمُها «الحرية»، أو هوية ضائعة اسمُها «الديموقراطية»، أو هويةٍ ضائعة اسمُها «خلقُ كيانٍ مجتمعيٍّ جديدٍ ينتفي فيه الزيفُ». إنّه بحثٌ عن الحقيقة. وهل الهوية غير الحقيقة؟ اسألوا صاحبَ المرايا، أو فوزي، أو غيرَهما من الأبطال الذين جرّبوا في الدين أو التصوّف أو الإلحاد أو الشيوعيّة أو الفلسفة العدمية أو معانقة اليأس واللامبالاة.

هل البحث عن الهوية رفضٌ للحاضر ـ الذي لا هويةٌ له ولا مذاقٌ، ولا يُقْنع، ولا يدعو إلى الاحترام ـ وتعلُّقٌ بالمستقبل؟. هل التعلُّقُ بهذا المستقبل إسرافٌ في التفاؤل، أم أنّ رغبة التغيير هي التي دفعتْ بالكاتب إلى أن يَرْسم صورةً متخيلةً لهذا المستقبل من خلال الصورة «المتوقعية» للحاضر، فيجاري صاحبَ المرايا الذي كان يتشبث بكل إشعاع نورٍ علّه يهديه، ورغمَ الضلال المتلاحق ظلّ يسعى، لا يقف في وجهه جدارٌ متسامق لأنه قُدّ من طينة سيزيف، ولو لم يُرْسِ الصخْرة؟

أتساءل ولا أريد أن أجيب نيابةً عن الباحثين التالين الذين سيتحرّكون في مختلف النصوص. □